الباب السابع

"الحتمية" فى التعليل السيكولوجى

قام التحليل النفسى كما قلنا على مبدأ التعليل لكل علة . ومعنى هذا أن كل الحوادث النفسية للإنسان مرتبطة ارتباط العلة بالمعلول، وأن كل حادث من مبدأ حياة الطفل ذو أثر فى سائر حياته . ويرجع التحليل النفسى بهذا المبدأ إلى الساعات الأولى من حياة الطفل ، بل إن حادث الولادة نفسه يعتبر من هذه الحوادث ، ويرجع التحليل إلى أبعد من ذلك فيعتبر أن حياة الجنين داخل الرحم جزء من حياته النفسية ، ولكل من هذه الأدوار فى حياة الفرد أثره المحتم فى شخصيته . ولو تتبعنا نظرية التحليل النفسى لوجدنا أن أهمية هذه "الحوادث" النفسية تزداد كلما اقتربنا من بدء الحياة ، فحوادث الطفولة والميلاد والحياة داخل الرحم ، أهم فى تشكيل الشخصية من حوادث المراهقة أو الشباب أو الكهولة .

ومبدأ الحتمية فى التحليل النفسى يشبه المبدأ الذى أخذت به العلوم الطبيعية حيث يحتم أن يكون لكل ظاهرة تعليلها ، ولا يقبل أن تبقى ظاهرة ما بغير تعليل . ولم يكن هذا المبدأ جديدا على علم النفس فى الواقع ، فإن محاولات الترابطيين (١) فى تفسير الحياة العقلية كانت محاولات من نفس النوع ، فقد جعلوا "الترابط" أساس التفسير النفسى ، ولكن مادة العقل عندهم كانت غالبا هى الأفكار ولذلك قل ما ذكروه عن النواحى الوجدانية النزوعية ، ثم إن سيكولوجية الترابطيين كانت سيكولوجية شعورية صرفة ليس للاشعور مكان فيها . وقد زادت سيكولوجية الترابطيين أن جعلت للترابط تفسيرا فسيولوجيا . فقد سارعت إلى الاستفادة مما عرف فى ذلك الوقت عن تركيب الجهاز العصبى وتكونه من خلايا وخيوط عصبية مرسلة وقابلة وملتقيات (٢) فكانت الخلايا هى مقارّ الأفكار واكسوناتها المرسلة والقابلة وسائل الترابط ، والملتقيات هى التى تحدد سهولة الارتباط أو صعوبته .

---

(١) Associationists   (٢) Synapsese

obeikandi.com

ولكن التحليل النفسى لم يفرض أى أساس فسيولوجى للترابط أو لغيره بل بالعكس قد استبعد فرويد جميع التفسيرات المبنية على أساس تشريحى أو فسيولوجى أو كيميائى (١) .

وقد أدى الأخذ بمبدأ الحتمية إلى نتيجتين :

(الأولى) أن كل مايمر بالإنسان من حوادث لابد أن تترك أثرها فى نفسه فتترك أثرا فى إحدى طبقات العقل الثلاث الشعور وتحت الشعور واللاشعور أو فى أكثر من طبقة. ويمكننا أن ننظر إلى كل حادث نفسى باعتبار أن مركزه فى إحدى الطبقات الثلاث ولكنه يمتد إلى سائر الطبقات فيحدث أثره فيها .

والتحليل النفسى هنا يقوم على الترابط أيضا حيث ترتبط حادثة نفسية معينة بأخرى فإن إحداهما إذا تكرر حدوثها أدى ذلك إلى إثارة زميلتها .

غير أن التحليل النفسى يختلف عن ترابط الترابطيين فى أنه لا يجعل الترابط بالضرورة بين عناصر فى نفس المستوى ، بل هو فى الغالب بين عناصر لاشعورية وأخرى شعورية ومن هنا كانت قوة اللاشعور وقدرته على التعبير الفعلى عن طريق ارتباط مكوناته بالشعور، ثم إن التحليل النفسى لم يقتصر كالترابطية على أن يكون مذهبا تحليليا (٢) بل زاد على ذلك أن كان مذهبا تركيبيا (٣) فوصل بنا إلى صورة متكاملة للسلوك الانسانى بدل أن يقتصر على التحليل .

وحتمية التحليل تختلف عن حتمية الترابط فى أنها مرنة فهى تسمح بأكثر من احتمال واحد من احتمالات السلوك طبقا لنوع التحول الذى حدث فى الطاقة العقلية كنتيجة لعملية (٤) اللاشعورية السائدة . وأقرب المذاهب الحديثة إلى الترابطيه هو مذهب السلوكيين (٥) بل إنه عند البعض مجرد امتداد لفكرة الترابطية فى صورة أخرى . وقد قيل عن التحليل النفسى مثل ذلك القول . غير أن نوع التحليل فى التحليل النفسى مبنى على قدر من الشمول والمرونة لا نجده فى النظريات السيكولوجية الأخرى

---

(١) Freud : Introd. Lect. on Psycho-Analysis, p. 16

(٢) Analytical

(٣) Synthetic

(٤) Mechanism

(٥) Behaviourism

وتبرز هذه النتيجة أهمية " التاريخ الفردى " فى التعليل النفسى . وبما أن الحوادث التى تمر بالفرد لا عداد لها فقد عمد علماء التحليل النفسى إلى بيان الأسس التى تشتق منها " الأهمية " النسبية لهذه الحوادث . فحوادث الطفولة أهم مما عداها، وحوادث الأسرة أهم مما عداها، وهكذا. ولو أنه فى الواقع ليس هناك تفضيل قاطع بل إن الحكم هو ملابسات كل حادثة بالذات .

وكما أن " تاريخ " الفرد أصبحت له هذه الأهمية الفائقة وخصوصا تاريخه المنسى ، فقد امتدت الأهمية إلى تاريخ الجنس كله . ذلك أن بعض المعترضين على التحليل النفسى ذكروا أن "عقدة أوديب"[1] لا يُعقل أن تنشأ عند ولد نشأ يتيم الأب أو لقيط رُبى فى ملجأ . وكان رد فرويد على ذلك أن عقدة أوديب وأمثالها من الأسس العميقة للحياة النفسية إنما تشتق من تاريخ الجنس كله لا من تاريخ الفرد فقط . ولو أن فرويد لم يتوسع فى هذه النظرة توسع تلميذه " يونج" الذى فرض وجود ما سماه " اللاشعور الجمعى " وجعله أساسا دائما من أسس التفسير النفسى بجانب اللاشعور الفردى .

وهكذا برزت أهمية فترة الطفولة عند الإنسان كأساس للتعليل النفسى بعد ذلك، وأصبح علينا أن نبحث عن جذور الاضطراب العصبى "العصاب" والجنون " الذهان "[2] فى فترة الطفولة ، وكذلك أصبح علينا أن نبحث فى هذه الفترة عن الأصول التى تُشتق منها كل من الشخصية الشاذة والعادية .

والواقع أن فترة الطفولة لم تكتسب قط تلك الأهمية الفائقة التى اكتسبتها كنتيجة لكشوف التحليل النفسى . فقد أصبح من المسلم به أن السنوات الخمس أو الست الأولى فى حياة الطفل هى الفترة التى ترجع اليها الصورة النهائية للشخصية أكثر من أى فترة أخرى .

وأما النتيجة (الثانية) : التى تترتب على الأخذ بمبدأ الحتمية فهى أن كل ما يأتيه الإنسان من تصرف انما هو مقرر من قبل ومشروط بما سبق أن مر به من تجارب

---

(١) انظر صفحة ٨٧ . Œdipus Complex

(٢) Neurosis & Psychosis والترجمة للدكتور يوسف مراد

فى طفولته وفى سائر مراحل حياته . وبمعنى آخر فان فى التحليل النفسى نوعا من "القدرية" فالفرد ليس حرا كل الحرية فى تصرفاته . والفرد فى ذلك مثل الجنس فكل منهما مقيد بقيود ماضيه . ومعنى هذا أن الفرد ليس مقيدا بقيود ماضيه الخاص فقط بل ماضى الجنس البشرى كله ، وبالضرورة فان الجنس مقيد بقيود ماضى أفراده ولعل هذا الرأى يتفق مع مانراه كل يوم من فشل المصلحين فى مختلف عصور التاريخ فى خلق صورة انسانية "منطقية" أو "مفيدة" ومانراه من فشل الأفراد فى تكييف أنفسهم فى صورة جديدة .

ولعل هذه النظرة إذا تابعناها قادتنا إلى التشاؤم المطلق والواقع أن هناك مبررا لكثير من التشاؤم ، ولكن هناك من الناحية الأخرى مكانا لقدر من التفاؤل . فقدريه التحليل النفسى قدرية علمية ، وليست قدرية مثالية ، وهى كقدرية العلم الطبيعى إذ يصف لنا الحالة التى تكون عليها قطعة الحديد اذا رفعت درجة حرارتها إلى درجة معينة ، فهى قدريه تستجمع مصيرها من الظروف التى مرت بها ومن المواقف التى تجد عليها . وكما أن فى مقدورنا إذا توصلنا الى علة التمدد أو الانصهار لقطعة الحديد و إلى التحكم فى هذه العلة الى أن نغير من الحالة التى تصبح فيها ، كما نغير من ضغط الغاز بتغيير حجمه وبالعكس ، فكذلك فى مقدورنا وقد عرفنا القوى الأساسية التى تعمل فى نفس الإنسان ، فى مقدورنا أن نرى الطريق إلى تخليصه من "مساوئه" والى الاتجاه به فى الطريق القويم . غير أن هذا "الطريق القويم" هو لسوء الحظ عقدة العقد لأن التحليل النفسى لايستطيع أن يختاره لنا وانما قد يستطيع أن يدلنا على السبب فى اختيار شخص بذاته "لطريق قويم" بذاته .

والتحليل النفسى يعالج الأفراد ، والعلاج معناه فى الواقع إعادة النسيج النفسى إلى صورة سوية بعد أن كان مملوءا بالعقد . أو بعبارة أخرى هو نوع من التدخل فى تاريخ الشخص فنحن إذ نخضعه لموقف التحليل إنما نعيده الى حالة الطفولة الأولى ونبدأ فى أن نحل العقد التى تكونت فى ذلك العهد السحيق . وبهذا المعنى فنحن نغير "تاريخه" وبذلك نؤثر فى مصيره .

وكما أن التحليل النفسى يعالج الأفراد فهو أيضا قادر على علاج الجماعات لو أتيح له ذلك ، ولعل اليوم يأتى حين يدلنا على العلل الأساسية فى المجتمعات ، تلك العلل التى تؤدى إلى انقسام المجتمع الواحد على نفسه وعلى نظيره ، وتضع

القوى الاجتماعية المختلفة بالنسبة لبعضها فى موضع التطاحن والتناحر الذى هو أساس الشقاء الذى يعانيه الجنس البشرى .

والشبه عجيب بين المجتمع المنقسم والشخص "المنقسم" الذى تتناحر قواه الداخلية فيضيع ماعنده من طاقة أو جهد فى هذا الصراع الداخلى الذى لايحقق غاية للكائن الحى بدل أن يتجه نحو العالم الخارجى ليحقق له غاية واقعية .

ويمكن أن نلمس فى المجتمعات صورا تشبه تلك الصور العصابية والذهانية التى نلمسها فى الأفراد ، ولعل هـذا هو المفتاح الذى قد يفتح لنا فى المستقبل الباب إلى الشفاء النفسى الجماعى كما فتح لنا الباب إلى الشفاء النفسى الفردى .

obeikandi.com